

الحركة الفكرية في الجزائر خلال العهد العثماني

THE INTELLECTUAL MOVEMENT IN ALGERIA DURING THE OTTOMAN ERA

قوني زينب

جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي، (الجزائر)،

zineb-gouni@univ-eloued.dz

باقي إيمان(*)

جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي، (الجزائر)،

begui-imane@univ-eloued.dz

تاريخ الاستلام: 2023/07/14 تاريخ القبول: 2025/01/07 تاريخ النشر: 2025/06/03

تهدف هذه الدراسة إلى البحث في تاريخ الحركة الفكرية في الجزائر خلال العهد العثماني، بغية التعرف على الجهود المبذولة والسياسات المتبعة في سبيل الرقي بالعلم والعلماء، ومعرفة مدى التقدم المعرفي الذي أحرز في هذا المجال، وكذلك تبيان أهم مراكز الإشعاع الثقافي التي كانت منتشرة آنذاك، وإبراز مختلف وجهات النظر بين الباحثين والمؤرخين حول الحياة الفكرية للمجتمع الجزائري في تلك الفترة.

الملخص

الكلمات الدالة: الحركة الفكرية، الجزائر، العهد العثماني.

Abstract:

This study aims to investigate the history of the intellectual movement in Algeria during the Ottoman era, in order to identify the efforts made and the policies followed in order to advance science and scientists, and to know the extent of cognitive progress achieved in this field, as well as to show the most important centers of cultural influence that were widespread at that time, and to highlight the different points of view among researchers and historians about the intellectual life of Algerian society during that period.

Keywords:

Intellectual movement, Algeria, Ottoman era.

* المؤلف المرسل.

مقدمة:

العلم هو الأساس الحقيقي لأي تقدم في المجتمع الإنساني، ومهد الثقافة وتطور الحضارات، والمتأمل في واقع الحركة الفكرية في الجزائر خلال العهد العثماني، يجد أنها تعكس مختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وما عايشه الجزائريون في تلك الفترة، لذلك فإن أي تغيير يصيب جانباً من هذه الجوانب فإنه بالضرورة يؤدي إلى تغيير في مسار الحياة الفكرية والثقافية في المجتمع. وما وصلنا إلى حد الآن من كتابات على يد الباحثين والمؤرخين من تاريخ الجزائر يؤكد ذلك.

انقسم الباحثون إلى فئتين في تدوينهم لهذه المرحلة من مراحل تاريخ الجزائر الفكري، فهناك من يرى بأن هذا العصر هو عصر الجمود والانحطاط الثقافي؛ في ما ترى الفئة الأخرى أن الجزائر بالرغم مما تعرضت له في عصر العثمانيين باعتباره عصر الدفاع السياسي واسترجاع الحقوق، إلا أن هناك أدب يجعلنا نفتخر به، وإذا ما بحثنا في هذه المصادر؛ فإننا نجد الكثير في هذا المجال وجلها كانت لمؤرخين أجانب والمستشرقين على الخصوص، أما المصادر العربية فهي قليلة لا تستطيع أن تنافس أو تزاحم " التآليف الأوروبية الخاصة بالجزائر في العهد العثماني، فالمؤرخون الذين عاصروا حوادث القرن السادس أو السابع عشر قليلون.¹ وعليه يمكننا طرح الإشكالية التالية: كيف كان الواقع الثقافي والحياة الفكرية في الجزائر العثمانية؟ وماهي أهم المؤسسات التعليمية التي كانت منتشرة آنذاك؟ وما الطرق والوسائل المتبعة في نشر العلم والثقافة في ذلك العهد؟.

واقع الحركة الفكرية في الجزائر العثمانية:

1. الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية للجزائر العثمانية:

كانت الجزائر خلال أواخر القرن الخامس عشر ميلادي محتلة من طرف القراصنة الإسبان والبرتغاليين، الذين نزلوا بالسواحل الجزائرية واحتلوا المراكز الإستراتيجية منها لأغراض سياسية واقتصادية كجاية وجيجل ومستغانم ووهران.. وغيرها، وفرضوا الجزية على الأهالي، فأصبحت البلاد في حال يرثى لها، إضافة إلى الصراعات الداخلية التي جعلت "بلادنا في حالة فوضى

وانقسام السلطة فيها موزعة بين الملوك الزيانيين والحفصيين وسلاطين الصحراء وشيوخها من أولاد بني جلاب المرنيين والنوايا وكانت الشعوب تعيش في ضنك وظلم شديد، والبؤس محيم على القطر لكثرة المجاعات والأمراض، والكوارث الطبيعية التي كانت تتسلط عليها،² وقد اشتهر الأسطول التركي بإنقاذ المسلمين في الأندلس من الاحتلال والاضطهاد العنصري، "فاستنجد حينئذ الشعب الجزائر بالأترك وبعثوا إليهم برسائلهم وقصائدهم، فلبوا طلبهم وحاربوا العدو حربا مريرة بجانب الشعب الجزائري الباسل الأبى وأرغموه أن يعرض الصلح على الجزائر".³ وبذلك تأكد دخول الأتراك للجزائر وساهموا في حل الأزمة الداخلية للبلاد وإنقاذها من براثن النزاعات والمجاعات التي كانت تسيطر عليها فأصبحت الجزائر موالية للدولة العثمانية وتابعة لها.

وعليه فإن الجزائر لم تكن في حال يسمح لها بالاهتمام بالجانب العلمي والحركة الثقافية في ظل تلك الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية السيئة، "ونلاحظ أن جهود الأتراك كانت متجهة نحو حركة الجهاد ضد القراصنة والمعتدين على البلاد، فلم يعطوا لأمر الثقافة ما تستحقه من عناية واهتمام. ولهذا غلب على عهدهم طابع الجفاف الفكري (...). إلا أننا لا ننكر بأن مدنا مثل بجاية وتلمسان وقسنطينة ومازونة لم تزل محافظة على ما ورثته من التراث الفكري فنبغ فيها رجال خلفوا لنا علوما وأدبا، وبما أن المركز السياسي تحول إلى مدينة الجزائر فإن الحركة الفكرية عرفت في هذه المدينة نموا لا بأس به فيما يخص الفنون اللسانية والأدبية"⁴؛ هذا ما عرف عن بعضهم، إلا أن أغلب الحكام العثمانيين لم يهتموا بالثقافة ولم يشجعوا عليها لأن اهتمامهم كان منصبا على الدفاع عنها من المحتلين إضافة إلى عدم إتقانهم للغة العربية صعب عليهم المهمة.

وهذا ما أشار إليه أبو القاسم سعد الله بقوله: أن العثمانيين "لم يشجعوا الثقافة والتقدم الفكري والفني لأن ذلك خارج نطاق العصر بالنسبة إليهم (...). وكتعبير على شعورهم الديني كانوا يبنون المساجد ويوقفون عليها، الأوقاف.. ومن ثمة فإن العثمانيين سواء كانوا في الجزائر أو في غيرها، كانوا يعيشون عصرهم، عصر التخلف الفكري والتدهور السياسي ولكن كانوا

يمثلون قمة هذا التخلف لأنهم كانوا مسؤولين على الأمة الإسلامية والخلافة (...). فالعلم في وقتهم من شؤون المجتمع وليس من شؤون الحكومة ولم تكن هناك وزارة ولا إدارة للتعليم لا في اسطنبول ولا في الجزائر⁵، وبذلك فإن ظاهرة التخلف والتراجع الثقافي لم تكن تخص الجزائر وحدها بل كانت مشتركة بين الحكام والمحكومين، لكن لم تدم هذه الظاهرة طويلا فبعد استقرار العثمانيين في الجزائر وتعايشهم مع الشعب واحتكاكهم به "اشترك العثمانيون حكاما وجنودا وكراغلة* في إقامة مؤسسات التعليم بإمكانياتهم عندئذ بدأوا بالكتاتيب حول المساجد في الأحياء الأهلة بالسكان وانتهوا بالمدارس والمساجد، التي كانت بدورها مراكز للتعليم والدروس"⁶، فسيطرت بذلك العلوم الدينية في الجزائر خلال العهد العثماني على الحياة الفكرية وأصبحت مراكز العبادة هي الإشعاع الرئيسي للعلم، وانتشرت الدراسات القرآنية كالتفسير والقراءات، ورواية الحديث.. وغيرها حتى أنه يمكن القول "بأن أغلب إنتاج الجزائر خلال هذا العهد ينحصر في العلوم الشرعية والصوفية والمجالات الأدبية (...). ولا شك أن ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى كون القرآن والحديث كانا المنبع الذي يستمد منه الجزائريون كل ألوان تفكيرهم وأنماط حياتهم."⁷

بناء على ذلك فإن الواقع الثقافي في العهد العثماني لم يكن على المستوى الرفيع الذي عرفته الجزائر سابقا على عهد الحماديين أو الزيانيين، فقد كانت أقرب إلى الثقافة التقليدية التي لا تساير العصر الحديث، وذلك لأن العلماء والأدباء لم يلقوا التشجيع والمساندة من طرف الحكام بل كانوا يدرسون على حسابهم الخاص ويمولون أنفسهم، ولهذا أصيبوا بالفشل والحمول مما أدى إلى نقص العلماء والأدباء الكبار في الجزائر. ومع ذلك فقد أكد صاحب كتاب المرأة عكس ما يقال عن هذا العصر حيث يقول: "أما من حيث الطاقات الفكرية، فإن خيال الجزائريين خصب، وأفكارهم منظمة إنهم يدركون الأمور بكيفية عجيبة ولا يصعب عليهم أي عمل يدوي كان أم آلي، أو له علاقة بالعبقرية (...). حيث كانوا يعتنون كذلك بالعلوم والآداب ففيهم الشعراء والأدباء والأساتذة والمشرعون."⁸

وعليه فقد وجدنا في العهد العثماني "تراثا أدبيا وفنيا وعلميا في مستوى طيب استحق منا العناية والدرس، ولكن يجب أن نلاحظ من الآن أن هذا الإنتاج بأنواعه كان خارج نطاق الحكم، فأصحابه لم يجدوا التبني ولا التشجيع من الحكام العثمانيين"⁹، وهذا لا ينفي أبدا وجود بعض الحكام العثمانيين الذين كان لهم قصب السبق في تشجيع العلم والعلماء وخاصة الدايات ومن بينهم الداوي محمد بكداش (1707م-1710م) "الذي كان له نصيب وافر من العلم، فقرب إليه العلماء والأدباء الذين أصبحوا جلسائه، مما أثر إيجابيا على تطور الحركة الأدبية وأخذ الأدباء والشعراء يقرضون الشعر ويكتبون النثر في شتى المجالات"¹⁰ وكان أيضا للأوقاف دور أساسي وكبير في انتشار العلم في جميع أقطار الجزائر في ذلك الوقت فقد "كانت أملاك الأوقاف تتمتع بحصانة قوية بحيث لا يستطيع الحكام مهما كانت رتبتهم المساس بها، وبفضل مال الأوقاف والزوايا في الأرياف انتشر التعليم في مختلف أنحاء الجزائر بحيث كان معظم الجزائريين يحسنون القراءة والكتابة وهذا ما شهد عليه الفرنسيون عند احتلالهم للجزائر".¹¹

2 المؤسسات العلمية في الجزائر العثمانية:

إذا قمنا بإحصاء للمؤسسات التعليمية في تلك الفترة، فقد "أخذت المدارس تتكاثر في العهد العثماني بالجزائر لا بالعاصمة مدينة الجزائر وحدها بل أيضا في المدن المختلفة مثل قسنطينة، وكان بها وحدها سبع مدارس وكان يقوم على التدريس في مدارس الجزائر جميعا علماء مهرة في العلوم الدينية واللغوية والأدب والفلسفة والطب والمنطق، وكانت تنفق عليها الدولة في كثير من الأحيان كانت تعتمد على أوقاف حبسها ذوو اليسار عليها"¹². وكانت مدينة قسنطينة من أكثر مدن الجزائر نشاطا فكريا وعلميا في ذلك العهد، وهذا ما أكد عليه صاحب كتاب فريدة منسية حيث يقول: "ومدينة قسنطينة أكثر من مائة جامع، ومسجد، وزاوية، وكتاب، يعمل بها أئمة، ووعاظ، ومرشدون، ومؤذنون، وقيمون، وحزاب، ومعلمون للقرآن الكريم، ومدرسون للعلوم الدينية، والأدبية".¹³ وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على

أن الجزائر في العهد العثماني كانت فيها حركة فكرية ثقافية حتى وإن كانت محصورة في المساجد والزوايا.

أما الزوايا أخذت تتزايد منذ القرن الثالث عشر ميلادي في أنحاء البلاد المغربية جميعها الجزائر وغيرها، وكانت الزاوية تشتمل على مسجد تؤدي فيه فروض الصلاة، وأبنية لسكنى الطلبة الغرباء والفقراء (الزهاد) فكانت بذلك دار تعليم ودارعبادة، ويعد مؤسس الزاوية المسؤول الأول عنها، ويتبعها موظفون للقيام بالخدمات المختلفة¹⁴، فهي بجانب أنها دور عبادة كانت تعنى بإلقاء المحاضرات في الموضوعات العلمية والعلوم الدينية المختلفة، وتهتم أيضا بتعليم الناشئة كما كانت تعنى بتنوير العامة من خلال إلقاء المحاضرات والدروس في شتى العلوم، "وتحول كثير منها وخاصة في المدن الجزائرية إلى ما يشبه مدارس عالية وكان كثير من التلاميذ يقصدها من الأماكن القريبة والبعيدة، وكثرت كثرة مفرطة منذ القرن العاشر في منطقة زواوة وبجاية وعنابة أو بونة ويقال أنها بلغت في مدينة الجزائر نحو 15 زاوية، وبلغت في قسنطينة نحو 16 زاوية، أما في تلمسان فبلغت نحو عشرين زاوية".¹⁵

وفي الغرب الجزائري فقد استقطب الساحة الثقافية والعلمية مركزان هامان: الراشدية وحاضرتها معسكر ومازونة ومدرستها الفقهية التي تألق نجمها بعد أفول نجم تلمسان وهجرة علمائها إلى المغرب، حيث تخصصت الراشدية وزواياها مثل زاوية "القيطة" في تدريس الفقه المالكي وعلم التوحيد إلى جانب الحديث وعلوم اللغة العربية من نحو وبيان، أما مدينة مازونة فاشتهرت بالفقه المالكي، وكل شيخ من شيوخها تخصص في باب من أبوابه، إلى جانب ذلك اضطلعت زوايا الإقليم منذ انتصار التصوف خلال القرن السادس عشر بمهام تدريس المذاهب الصوفية.¹⁶ وهذا ما أكدته الكاتب أحمد توفيق مدني في كتابه تاريخ الجزائر، حيث يرى أن الحركة العلمية في هذا العصر لم تقف وأن فضلاء الأتراك وأعيانهم كانوا ينشطون العلم والمتعلمين بما حبسه على تلك المشاريع من أوقاف الغنية ذات الربيع الكبير، حيث امتاز هذا العصر في الجزائر بأمرين كبيرين الأهمية أولهما الجمود الفكري؛ حيث اعتكف العلماء والمتعلمون على العلوم النقلية تاركين العقل جانبا، وثاني الأمرين هو اشتداد نفوذ المرابطين وانتشار أمر الولاية

والصلاح والزهد والتصوف، فأخذ الناس يقبلون على الطرق الصوفية جموعا، وأخذت هذه تنتظم وتعمّر زواياها، وكانت تلك الزوايا في أغلب الأحيان تتلقى من المريدين النذور وتنفق قسما كبيرا من ذلك على الطلبة الذين يستقرون بالزاوية لتعلم القرآن الكريم والعلوم الدينية فلا يبرحونها حتى تتم معلوماتهم.¹⁷

إضافة إلى المساجد والزوايا نجد المكتبات والتي ساهمت أيضا مساهمة في نشر العلم والثقافة بين الأفراد والمجتمعات، "كانت الزوايا تتخذ المكتبات، وكانت تجمع إليها بجانب المصاحف وكتب الحديث النبوي وأمّهات الكتب في الفقه وغير الفقه،"¹⁸ والتي كانت لها الدور الفعال في تنشيط الحركة الفكرية في الجزائر العثمانية، هذا ما أكدّه أبو القاسم سعد الله في قوله "فإن الجزائر خلال العهد العثماني كانت في طليعة البلدان الكثيرة الكتب والمكتبات، وقد شهد على وفرة المكتبات فيها حتى خصوم العثمانيين، كالفرنسيين"¹⁹ وتشهد عبارات الباحثين الفرنسيين الذين شاهدوا وجمعوا المخطوطات من مكتبات المدن الجزائرية غداة الاحتلال "أنهم كانوا مندهشين من كثرة الكتب التي وجدوها ومن تنوعها ومن جمالها والعناية بها، فقد اعترف بذلك البارون ديسلان* الذي كتب تقريرا عن المكتبات بقسنطينة عقب احتلالها مباشرة. وقد ذكر أيضا شارل فيرو* الذي كتب عن المؤسسات الدينية في قسنطينة وعن العائلات الكبيرة بها، إن بعض هذه المؤسسات والعائلات كانت تحتفظ بمخازن من المخطوطات في حالة جيدة(...) وضرب على ذلك مثلا بمكتبة شيخ الإسلام بقسنطينة (عائلة الفكون) التي قال عنها إنها كانت غنية لا بالكتب الخاصة بالجزائر فقط، بل حتى بالكتب المتعلقة بالبلاد الإسلامية المجاورة، وكان يريد بذلك أن يبرهن على وجود الكتب بالجزائر وتذوق الفنون والعلوم من قبل أهلها، رغم عدم عناية العثمانيين بالثقافة."²⁰

وقد قسم سعد الله المكتبات خلال العهد العثماني في الجزائر إلى قسمين خاصة وعامة، أما العامة هي تلك المكتبات التابعة للمساجد والزوايا والمدارس والتي كانت مفتوحة للطلبة خصوصا ثم لجميع القراء المسلمين، ومن أشهر هذا النوع من المكتبات مكتبة الجامع الكبير بالعاصمة، ومكتبة المدرسة الكتانية التي أسسها صالح باي بقسنطينة، ومكتبة المدرسة المحمدية

التي أسسها الباي مُحمَّد الكبير في معسكر، ومكتبة زاوية الشيخ التازي بوهراڤ إضافة إلى مدرسة مازونة وزاوية آقبو وزاوية الخنقة وغيرها كانت تضم مكتبات يطالع منها الطلبة والأساتذة.²¹

أما المكتبات الخاصة فكثيرة وليس من السهل حصرها، غير أن بعض العائلات قد اشتهرت لطول عهدها بالنفوذ بالمكتبات دون الأخرى، فعائلة الفكون بقسنطينة كانت لها مكتبة ضخمة أصبحت مضرب الأمثال بعد الاحتلال الفرنسي كما ذكر آنفا، ومكتبة أبي راس التي حبسها عليه أحد بايات وهران وسماها (بيت المذاهب الأربعة) وهي مكتبة كبيرة، ومكتبة شيخ العرب ابن الصخري الذي يظهر أنه كان يشجع على نسخ الكتب أيضا، وقد ذكر العياشي* أن مكتبة الشيخ مُحمَّد بن إسماعيل بتكورارڤ كانت تحتوي على ألف وخمسمائة تأليف²²، ولما كانت السيادة في العهد العثماني للعلوم الدينية فإن محتوى المكتبات كان أغلبه لا يخرج عن هذه العلوم.

3. الرحلات العلمية وأثرها في الحركة الفكرية:

يذكر بعض الباحثين أن من أهم الأسباب التي أدت إلى جمود الحركة الفكرية في الجزائر العثمانية، هي هجرة العلماء الجزائريين إلى بلدان المشرق العربي والمغرب الأقصى وهذا ما ذكرناه آنفا، "ما شكل نزيفا خطيرا وأثر تأثيرا سلبيا على الحركة العلمية في الجزائر آنذاك، وقد تعددت الأسباب والدوافع التي دفعت بهؤلاء العلماء إلى المغادرة، ومن بينها تراجع الحركة العلمية وتدهور التعليم في تلك المرحلة حسب ما تؤكد بعض المصادر".²³

بذلك يمكننا القول أنه كما كان للرحلات العلمية دورا في فشل الحركة الفكرية في الجزائر العثمانية، كان لها الأثر الواضح في نشاطها وانتشارها أيضا، فكما كان علماؤها يهاجرون منها ويرحلون إلى بلدان المشرق والمغرب العربي آنذاك إلى طلب العلم والحج وغيرها، كان في المقابل يأتيها العديد من العلماء الكبار وطلبة العلم سواء كانوا من المشرق أو المغرب أو من بلدان إسلامية أخرى، كاستنبول وغيرها... "فقد كانت الجزائر العثمانية بدورها محطة جذب لكثير من العلماء الذين توافدوا عليها من أنحاء شتى من العالم الإسلامي ومن هؤلاء عالم يدعى فتح الله الذي ولد بالشام ثم رحل مع عائلته إلى مصر، ومن هناك قدم إلى الجزائر حيث استقر

بقسنطينة ليمارس وظيفة التدريس والخطابة والحنفية، وكذلك عائلة ابن العنابي التي قدمت من اسطنبول واستقرت في بداية الأمر بعنابة ثم انتقلت إلى مدينة الجزائر، أين تولى عدد أفرادها وظيفتي الإفتاء والقضاء وهكذا فإن كانت الجزائر قد هجرها العديد من علمائها فإنها استقبلت أعدادا منهم رغم أن معظم هؤلاء الوافدين جاؤوا من أجل نشر المذهب الحنفي وتولي وظائف التدريس والقضاء، والإفتاء على هذا المذهب.²⁴

كما يرى بعض الباحثين أن أدب الرحلة من أهم المصادر التاريخية التي يمكن الاعتماد عليها في معرفة تاريخ البلدان، وقد أطلعنا بعض الرحلات التي كتبها جزائريون ومغاربة وغيرهم من الذين عايشوا تلك الفترة من تاريخ الجزائر، وقد أشار صاحب كتاب "الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني مولاي بالحميسي أن "الرحلة العلمية وإن ضحت بوصف البلدان والمجتمع فإنها تفننت في الحديث عن الحياة الفكرية والنشاط الثقافي وما هذا بالجانب الذي يستهان به"²⁵، حيث درس فيه بعض الرحلات لأدباء وكتاب جزائريين ومغاربة رصد فيها حالة الجزائر الفكرية والنشاط الثقافي الذي كان سائدا في تلك الفترة، وأضاف أيضا "وعندما زاد على الرحلة الإقبال وتنوعت الأغراض وتعددت الموضوعات وتطور هذا الفن الأدبي كما وكيفا وأصبح من الأهمية بمكان بحيث لا تكتمل ثقافة الإنسان بدونه كما أصبح من أهم المصادر التاريخية."²⁶

فهو يشير إلى أن أدب الرحلة يعد من المصادر التاريخية التي يمكن الاعتماد عليها في معرفة حقائق تخص الجانب الفكري والثقافي للبلاد التي ارتحل إليها، وهو الجانب الذي غفل عنه العديد من المؤرخين، كما أنه يشرح فيه بالتفصيل الواقع العلمي والثقافي للجزائر، لأنه في ذلك العصر لاحظ الباحثين والعلماء غياب الاهتمام بعلم التاريخ وتدوين الأحداث، ويؤكد الحسين الورثاني صاحب "نزهة الأنظار" قلة العناية بعلم التاريخ قائلا: "إن الاهتمام بالتاريخ أمر مضحك، لا يدرسه أهل الجّد والدين بل هو عند البعض ضد الدين والأخلاق، فعلم التاريخ منعدم فيهم وساقط عنهم"، (...) ويعزو الدكتور سعد الله هذا القصور العلمي إلى سيطرة التصوف والروح الدينية السلبية لأن فن التاريخ والأخبار منسوب عندهم إلى السير العامة.²⁷

لذلك لجأ جُلُّ الباحثين إلى أدب الرحلات الذي وجدوا فيه ما يشفي غليلهم فيما يخص تاريخ الحركة الفكرية والعلمية في تلك الفترة، ومن الرحلات التي حُصت بالدراسة رحلة التيمقوتي ورحلة العياشي ورحلة ابن زاكور وهذا الأخير نجد "في رحلته صورة حية ومفصلة للحياة العلمية التي يصل إلى تحليلها ولم يقدر على وصفها غيره من الذين زاروا الجزائر وأقاموا بها في وقته".²⁸

وقد كانت رحلة ابن زاكور في النصف الثاني من القرن السابع عشر ميلادي، حيث ابتدأها بمدح علماء الجزائر وذكر خصالهم الحميدة حيث يقول: "غرر أعلام، ينجلي بهم الظلام، وشمس أئمة، تنفجر بهم كل غمة، وتفتخر بهم أخبار هذه الأمة، من رجال، كالجبال، وأخبار كالأقمار..") ورتعت في رياض آدابهم فتمتعت، وأهملت من حياض علومهم حتى تضلعت، وكرعت في أنهار بلاغتهم حتى رويت...²⁹، هذا وإن دل على شيء فإنه يدل على أن الجزائر لم تخلو من العلماء والأدباء وطلبة العلم في ذلك الوقت كما أوضح بعض الباحثين.

كما أشار أيضا في هذه الرحلة إلى الكتب التي كانت تدرس في الجزائر آنذاك، والتي عرفت رواجاً منقطع النظير وهي "ألفية العراقي (في المصطلح)، جملة من كتب السير صحيح البخاري، مختصر خليل (في الفقه)، نظم ابن عاصم (في الأحكام) شفاء القاضي عياض، بردة البوصيري، عقائد السنوسي، خزرجية الشريف الغرناطي، لامية ابن مالك (في الصرف) جمع الجوامع للسبكي، وشروح المحلي وولي الدين العراقي والكوراني، ومختصر بن الحاجب، وتلخيص المفتاح (في البيان)، والجمال للخواججي، ونظم لعبد الرحمان الأخضر، ونظم أبي إسحاق التلمساني (في الفرائض)، والسلم المورونق لعبد الرحمان بن محمد الصغير"³⁰، فمن خلال هذه الكتب برز علماء كبار في الجزائر العثمانية، ومن حاز هذه الكتب وحفظها وتمكن منها عندئذ أصبح عالماً أو فقيهاً أو أديباً، إضافة إلى تمكنه من حفظ كتاب الله بآدئ الأمر.

كما بين أيضاً في هذه الرحلة طريقة التدريس التي كانت سائدة في ذلك الوقت حيث "يلتزم الطالب شيوخه سنوات طويلة أو شهور عديدة يحضر الجلسات ويشارك في الحلقات ويجمع الشارد والوارد ويبرهن على الطاعة والإعجاب"³¹، حتى يتمكن الطالب من استيعاب الدروس والمحاضرات، ومن الطلبة من يأتي من البلاد البعيدة طلباً للعلم، حيث يتلقى العلوم

والمعارف ويبقى مدة من الزمن يشارك فيها حلقات العلم وينهل منها من العلماء والفقهاء حتى يصبح عالما فقيها. وقد كان الحفظ من أهم طرق التدريس فلا يمكن الاعتماد على طرائق أخرى للحصول " فقد كانت تعتمد على النقل والرواية والحفظ ولا تشجع ملكات النقد والتجديد لدى الطلبة والشيوخ على السواء فالغاية من التعليم في نظر الفقهاء دينية أخلاقية يقصد بها تميم الدين وتقوية الإيمان فمن الكتاب إلى الجامع كان الحفظ والاستظهار، جوهر التعليم وكان الشيوخ والطلبة يتنافسون على رواية المصادر كالقرآن والحديث والمختصرات في شتى العلوم.³²

وفي الأخير أشار إلى الإجازات: "وهي ما يقابل اليوم الشهادات الجامعية وشهادات الكفاءة التي تؤهل حاملها لتدريس الفقه أو المنطق أو علم من العلوم الكثيرة أو تحوله حق الرواية وتلقين المعارف على الصورة التي تلقاها بها"³³ ومنه فإن الإجازة بالمفهوم العام هي أن يأخذ طالب العلم من شيخه الإذن بأن يجيزه بمسموعياته وعلمه ومروياته التي أخذها عنه، إذن فالطالب مجاز له والشيخ مجيز، والإجازة أنواع أي أن لكل تخصص إجازة خاصة به.

بالتالي فإن الغالب والسائد في ذلك العصر كما أشرنا من قبل هي العلوم الدينية، فقد "كان أساس التعليم هو الدين، فحفظ القرآن الكريم كان عمدة التعليم الابتدائي، ومعرفة بعض علوم القرآن كان عمدة التعليم الثانوي والعالي أيضا، ولم يكن تعلم القراءة والكتابة إلا تابعا لحفظ القرآن كما أن تعلم بعض العلوم العملية كالحساب كان يهدف أيضا إلى غرض ديني بالدرجة الأولى وهو معرفة الفرائض وقسمة التركات بين الورثة"³⁴.

وقد جاء رأي صاحب كتاب "التحفة المرضية" ليؤكد هذا حيث يرى أن الحركة الفكرية في الجزائر خلال العهد العثماني انقسمت إلى نوعين حركة علمية وأخرى أدبية، فالحركة العلمية " لم يقصد بها الحركة العلمية بمفهومها في العصر الحاضر من اختراع الأشياء(..) كاختراع طاقة الذرة والصاروخ -مثلا- وإنما يقصد بها شيئا آخر أبعد من ذلك هو العلم المنقول، أو الحركة الدينية - إن صح التعبير - وذلك لأن مفهوم العلم -في ذلك العصر- قد

كان اتقاننا لفهم آي الذكر الحكيم، وحفظا لمرويات الحديث الشريف ومعرفة لأصول العقائد والفقهيات... وغيرها"³⁵، وكان رجال الدين في نظر الأمة الإسلامية هم العلماء.

يذكر أيضا أن الحركة الثقافية في الجزائر آنذاك كانت جهوية إقليمية أكثر منها وطنية، أي أنها كانت محصورة في أشخاص معينين وأماكن محدودة وضرب لذلك مثلا "ما قاله بعض المؤرخين من أن الفرنج وهو "بول قافاريل"، كانت قسنطينة على عهد الأتراك عاصمة دينية، وكانت العلماء تتمتع فيها بالسيادة المطلقة والنفوذ التام كما أنها كانت غاصة بعدد كبير من الطلبة يغتربون من خمس وعشرين مدرسة للعلوم الدنيوية والأخوية ثم يتفرقون في أنحاء القطر لينشروا ما اغتربوه من العلوم. إن قسنطينة كانت -حقا- مبعث نور الجزائر، كما كانت تشرف العلماء وتقدرهم حق قدرهم."³⁶ ففي نظره أن قسنطينة هي من المدن الرئيسية والخاصة التي بقيت محافظة على شيء من التراث العلمي والأدبي، وإذا كانت الثقافة محصورة في أشخاص وأماكن معينة فهي في نظره عاجزة عن التأثير الذي هو شرط أساسي لثقافة الشعوب، وكانت الحركة الأدبية أقل انتشارا من الحركة الدينية ولعل ذلك يعود لسببين اثنين:

الأول: أن الدولة التركية الجزائرية قد كانت أعجمية اللسان..، فهي لا تهتم إلا برجال الحرب ولأن العصر عصر اضطراب وانتقام، والأدب نافلة تتنفل به الشعوب التي انتهت من أداء واجبها فمن أين تفاجئ فكرة الأدب شعبا مثل الشعب الجزائري، قد كان مشغولا بقوت يومه وكسب عياله، فهو يقاسي في مسقط رأسه-الأميرين- من حيث تنابع الثورات الداخلية وتوالي الهجمات الخارجية.

والثاني: أن التوجيه التعليمي كان دينيا أكثر منه أدبيا، لاسيما الزوايا التي لم تؤسس إلا لتكون مرتعا للعلوم الدينية، والفنون الإسلامية.³⁷

وإذا أردنا التعمق في البحث عن الواقع الثقافي وخاصة الجانب الأدبي لتلك الفترة، فإن الأدب بشقيه شعرا ونثرا لم يكن بتلك الكثرة والشهرة، "ليس معنى هذا أن القطر الجزائري قد خلا -كليا- من الأدب إبان عهد الأتراك، بل هناك أدب، بيد أنه ما زال فجاء لم يبلغ النضج العقلي والشعور الحي والخيال الجوال"³⁸.

4. أشهر علماء الجزائر في العهد العثماني:

نبغ في الجزائر ثلة من العلماء الأعلام في ذلك العصر؛ نالوا في أوساط الأهلية والحكومية كل اعتبار، وأفادوا كثيرا:

فنبغ في القرن الحادي عشر الشيخ أبو مهدي عيسى بن مُحمَّد الثعالبي، والنحوي الشهير أمير الحاج الجزائري، والشيخ مُحمَّد بن عبد الكريم الفكون القسنطيني، ويحيى ابن صالح الشاوي الملياني العلامة الفقهية، وكذلك سيدي عمر بن مُحمَّد المنقلاقي القبائلي.

ومن نبغ في هذا العهد بجنوب الجزائر علامة المعقول والمنقول نابغة عصره ضياء الدين الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم الثميني من بني يزقن بوادي ميزاب، وكذلك نجد مُحمَّد مسبح القسنطيني وسيدي مُحمَّد بن عبد الملك الراشدي مفتي المالكية بالعاصمة وغيرهم من العلماء الكبار.³⁹ وكذلك لا ننس العالم القماري السوفي خليفة بن حسن حيث ذكر العياشي أنه ترأس مع بعض علماء الجزائر، ومن بينهم خليفة بن حسن الذي كانت سمعته ذائعة في عصره، حيث سمى نظمه المذكور (جواهر الإكليل في نظم مختصر الشيخ الخليل) وكان قد فرغ من نظمه سنة 1196م، وكذلك ألف غيره في الفقه أيضا وهو (الكنش أو الكناش) جمع فيه مسائل فقهية هامة على شاكلة النوازل والفتاوى وقد قدره من رآه بثلاثمائة صفحة من الحجم الكبير.⁴⁰

الخاتمة

ومجمل القول يمكن أن نستنتج مما سبق أن الحركة الفكرية الجزائرية إبان العهد العثماني، كانت تسير ببطء شديد لا يكاد يلاحظ في نظر بعض الباحثين؛ وذلك بسبب الأوضاع السيئة التي كانت سائدة آنذاك، فقد كان لكثرة الزوايا وانتشار الصوفية بشكل كبير في ذلك العصر بالغ الأثر في تردي الحياة العلمية والثقافية في الجزائر، حيث أصبح الناس يصدقون بالخرافات الخيالية وكثرة زيارة الأضرحة والتبرك بها، جعلهم محصورين في دائرة واحدة معزولون عن العالم، هذا في بعض المناطق فقط، فيما يرى بعض الباحثين أن هناك بعض المناطق الأخرى التي كانت حية، نشطت فيها الحياة الثقافية والعلمية وكثرت فيها المدارس والمكتبات والمؤسسات التعليمية مثل قسنطينة، وبجاية، وعنابة، وتلمسان، وغيرها من المدن والقرى

الجزائرية، لكن ومع اختلاف الباحثين والمؤرخين وعدم توافقهم على رأى واحد في هذا الموضوع بالذات، أدى بنا إلى البحث عن مصادر علمية أخرى تمكننا من توسعة دائرة البحث؛ فاخترنا الرحلات العلمية حيث أنه لا يخفى على الكثيرين بأن الرحلات العلمية تعتبر من أهم المصادر التاريخية التي يعتمد عليها في معرفة تاريخ البلدان وأخبارها سواء كانت السياسية أو الاجتماعية أو الحياة الثقافية والفكرية، فبلغتها السهلة وأسلوبها العفوي الصادق يمكن أن تمدنا بالكثير من الأخبار والتفاصيل التي غفل عنها بعض المؤرخين. ويبقى هذا المقال بذرة لم تنضج بعد، وتحتاج للمزيد من السقي والاهتمام من طرف الباحثين والدارسين للبحث والتنقيب فيها حتى تنمو وتكتمل.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1/ مولاي بالحميسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، (ش، و، ن، ت)، (د، ط)، الجزائر، 1981.
- 2/ عبد الحميد بن اشنهو: دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، مطبعة الجيش، الجزائر، (د، ط)، (د، ت).
- 3/ محمد طمار: تاريخ الأدب الجزائري، (ش، و، ن، ت)، الجزائر، (د، ط)، (د، ت).
- 4/ محمد الصالح العنتري: فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، تحقق: يحي بوعزيز، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2009.
- 5/ حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، تحقق: محمد العربي الزبيري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، (د، ط)، 2556، الجزائر.
- 6/ محمد بن أحمد أبي راس الناصر: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تحقق: محمد غالم، ج1، منشورات المركز الوطني للبحث، (د، ط)، (د، ت).
- 7/ أحمد توفيق مدني: تاريخ الجزائر، المطبعة العمرية، (د، ط)، (د، ت).

- 8/ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، ج1، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998، بيروت، لبنان.
- 9/ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، ج2، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998، بيروت، لبنان.
- 10/ بوسناني محمد: هجرة العلماء الجزائريين إلى المغرب الأقصى وبلدان المشرق، المواقف، مجلة الدراسات والبحوث في المجتمع والتاريخ، ع4، 2009، الهجرة والمواطنة، كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة معسكر، الجزائر.
- 9/ عمورة عمار: الموجز في تاريخ الجزائر، دار ربحانة، القبة، الجزائر، ط1، 2002.
- 10/ شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات، ج10، دار المعارف، ط1، القاهرة، (د.ت.).
- 11/ ابن زاكور الفاسي: نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، (د،ط)، الجزائر، 2011.
- 12/ محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر الحمية، تق: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981.
- 13/ الموقع الإلكتروني: <https://ar.wikipedia.org>.

هوامش:

- ¹ مولاي بالحيمسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، (ش، و، ن، ت)، الجزائر، (د، ط)، 1981، ص14.
- ² عبد الحميد بن اشنهو: دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، مطبعة الجيش، الجزائر، (د، ط)، (د، ت)، ص26.
- ³ محمد طمار: تاريخ الأدب الجزائري، (ش، و، ن، ت)، الجزائر، (د، ط)، (د، ت)، ص215.
- ⁴ المرجع نفسه: ص218.

- ⁵ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، ج1، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998، بيروت، لبنان، ص192.
- * كلمة تركية أطلقت في العهد العثماني على إيلات العثمانية في شمال إفريقيا وتعني "أبناء رقيق" أو "ابن العبد" استخدم المصطلح للإشارة إلى الذرية الناتجة عن نتيجة زواج أفراد الجيش التركي بنساء الجزائر.
- ⁶ المرجع السابق: ص192.
- ⁷ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، ج2، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998، بيروت، لبنان، ص9.
- ⁸ حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، تحقق: محمد العربي الزبيري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، (د.ط)، 2556، الجزائر، ص66، 67.
- ⁹ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق: ص195.
- ¹⁰ بوسناني محمد: هجرة العلماء الجزائريين إلى المغرب الأقصى وبلدان المشرق، مواقف، مجلة الدراسات والبحوث في المجتمع والتاريخ، ع4، 2009، الهجرة والمواطنة، كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة معسكر، ص99.
- ¹¹ عمورة عمار: الموجز في تاريخ الجزائر، دار ربحانة، القبة، الجزائر، ط1، 2002، ص109.
- ¹² شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات، ج10، دار المعارف، ط1، القاهرة، (د.ت)، ص80.
- ¹³ محمد الصالح العنتري: فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، تحقق: يحي بوعزيز، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2009، ص24.
- ¹⁴ ينظر: شوقي ضيف: المصدر نفسه، ص80.
- ¹⁵ المصدر نفسه، ص80.
- ¹⁶ محمد بن أحمد أبي راس الناصر: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تحقق: محمد غالم، ج1، منشورات المركز الوطني للبحث، (د.ط)، (د.ت)، ص12.
- ¹⁷ ينظر: أحمد توفيق مدني: تاريخ الجزائر، المطبعة العميرية، (د، ط)، (د، ت)، ص89.
- ¹⁸ شوقي ضيف: المصدر السابق، ص80.
- ¹⁹ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ص285.

*اسمه الحقيقي ماك جوكان دي سلان، (1801-1879) هو مستشرق فرنسي من أصل إيرلندي، الموقع الإلكتروني: <https://ar.wikipedia.org> يوم: الأحد 2024/06/02. على الساعة: 21:30.

* (1703-1628) كاتب وشاعر فرنسي وهو الذي وضع حجر الأساس لنوع حديث في الكتابة الأدبية سماه ب حكاية خرافية. الموقع الإلكتروني: <https://ar.wikipedia.org> يوم: الأحد 2024/06/02. على الساعة: 21:30.

²⁰ أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص 286، 287.

²¹ ينظر: المصدر نفسه، ص 296، 297.

* (980هـ-1051هـ) هو مجاهد ومتصوف مغربي، بطل شعبي، بزغ نجمه في أواخر عهد الدولة السعدية. <https://ar.wikipedia.org>

²² ينظر: أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 296، 297.

²³ بوسناني محمد: هجرة العلماء الجزائريين إلى المغرب الأقصى وبلدان المشرق، المواقف، ص 99.

²⁴ عمورة عمار: الموجز في تاريخ الجزائر، دار ربحانة، القبة، الجزائر، ط 1، 2002، ص 109.

²⁵ مولاي بالحيمسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ص 10.

²⁶ المصدر نفسه، ص 10.

²⁷ محمد بن أحمد أبي راس الناصر: المصدر السابق، ص 23، 24.

²⁸ مولاي بالحيمسي: المصدر السابق، ص 32.

²⁹ ابن زاكور الفاسي: نشر أزهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، (د)، ط)، الجزائر، 2011، ص 40، 41.

³⁰ مولاي بالحيمسي: المصدر السابق، ص 33.

³¹ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³² محمد بن أحمد أبي راس الناصر: المصدر السابق، ص 13.

³³ مولاي بالحيمسي: المصدر السابق، ص 34.

³⁴ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 315.

³⁵ محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تق: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 2، الجزائر، 1981، ص 46، 47.

³⁶المصدر نفسه، ص52.

³⁷ينظر: مُجد بن ميمون: التحفة المرضية في الدولة البكداشية، ص56، 57.

³⁸المصدر نفسه، ص67.

³⁹ينظر: أحمد توفيق مدني: المصدر السابق، ص90-94

⁴⁰أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص78